

مسرحية عجلت بقيام الثورة الفرنسية



الشارقة: علاء الدين محمود

ترسخ الأعمال الفنية والأدبية عندما تكون قريبة من المجتمع والجمهور، تحمل همومه وتناقش قضاياها، وكذلك بقدر ما تحمل من رؤى وأفكار ورسائل تكون ملهمة للناس في كل مكان، وتعينهم على مقابلة صعاب الحياة وتوفر لهم الحلول.

مسرحية «زواج فيجارو» للمؤلف الفرنسي بيير كارون دو بومارشيه (1732-1799)، كان قد كتبها عام 1778، ووجدت نجاحاً غير مسبوق، وظلت تعرض طوال العام، بواقع سبعة وستين عرضاً في السنة، وجراء ذلك لقيت صدى كبيراً خارج فرنسا لأسباب كثيرة منها دعوتها للحرية، ولحدائث مضمونها وجدة طرحها. يتكون العرض من خمسة فصول، وبطله فيجارو، وهو رجل محب للحياة، مع ميل نحو التمرد، حيث كان يطالب بالمساواة مع سيّده الكونت ألبافيفا، وهو أمر كان غير عادي ومفارق لعادات المجتمع وتقاليده في ذلك الوقت، حيث كانت مطالبه تلك بمثابة دعوة مباشرة للحرية والعدالة والمساواة، وخروج عن القيم التي ترعاها السلطة السياسية والكنيسة.

وعلى الرغم من أن المسرحية ذات طابع كوميدي ضاحك، فإنها تتضمن النقد الساخر واللاذع ضد امتيازات طبقة النبلاء غير العادلة التي كانت تقلل من شأن الطبقات الشعبية المستضعفة، فقد كتبها بومارشيه بنفس شخصيات وأجواء مسرحيته التي سبقتها (حلاق إشبيلية) والتي استلهم فيها أسماء وأماكن إسبانية، على الرغم من أنها مسرحية تعكس الواقع والأحداث في فرنسا قبيل الثورة الفرنسية ولا علاقة لها بإسبانيا، مستعرضاً بصورة رمزية وساخرة، الطبقة السائدة في المجتمع الفرنسي والمعاناة الشديدة التي كان العمال والفلاحون يكابدونها.

كان الملك يحكم بصورة مطلقة، بمساعدة رجال الدين المسيحي، وكان سجن الباستيل الشهير مصير كل من يعترض على تلك المنظومة.

لقيت المسرحية شهرة كبيرة، حتى إن الموسيقار الشهير موزارت صاغ منها عام 1786 أوبرا، بالعنوان نفسه، عرضت أول مرة في فيينا قبيل الثورة بثلاثة أعوام فقط. ولعل قوة العرض هي التي شجعت موزارت الذي خرج بالفعل عن المألوف، حيث كانت الأوبرا تحكي عن قصص الأساطير والعوالم الخيالية البعيدة عن المعاناة الإنسانية، فكانت أوبرا زواج فيجارو نقطة التحول الحقيقية في مجال التأليف الموسيقي الأوبرالي.

استنكر الملك لويس السادس عشر المسرحية ونقدها اللاذع للقيم السائدة واستهزاءها بالسلطة؛ لأنها كانت تساند الطبقة البورجوازية الصاعدة في دعوتها إلى الحرية والمساواة بين البشر، ووصفها بالعمل المقيت. وقال عن كاتبها: «هذا الرجل يستهزئ بكل ما يمثل السلطة»، مضيفاً أنها لن تعرض أبداً.

غير أن المؤلف أعاد كتابتها من جديد، وقدمها على خشبة مسرح «الأوديون» في 25 أبريل عام 1784، دون أن يتنازل عن نقده المبطن للسلطة، وتابعها الناس وعُدّت من الأعمال التي بشرت بالثورة الفرنسية، وكان الشعب يتابع المسرحية التي كانت تعرض بصورة مستمرة، فيزداد حماسه وهيجانه، إلى حد قول كثير من النقاد إن المسرحية لم تلهم الناس فقط؛ بل عجلت قيام الثورة الفرنسية عام 1789، لكونها ألهبت حماس الجماهير.